عبقرية الداعى

اتفقت أحوال العالم إذن على انتظار رسالة؟؟

واتفقت أحوال محمد على ترشيحه لتلك الرسالة..

وكان من الممكن أن تتفق أحوال العالم وأحوال محمد، ولا تتفق معها الوسائل التى تؤدى بها رسالته على أحسن الوجوه.

كان من الممكن أن ينتظر العالم الرسول، ثم لا يظهر الرسول.

وكان من الممكن أن يظهر الرسول فى البيت الصالح وفى البيئة الصالحة، ثم لا تتهيأ له الصفات التى يتم بها أداء الرسالة.

ولكن الذى اتفق فى رسالة محمد قد كان أعجب أعاجيب الاتفاق، وكان المعجزة التى تفوق المعجزات.. لأنها مع ضخامتها وتعدد أجزائها وتوافق تلك الأجزاء جميعها، مما يقبله العقل قبولا سائغا بغير عنت ولا استكراه..

فكان محمد مستكملا للصفات التى لا غنى عنها فى إنجاح كل رسالة عظيمة من رسالات التاريخ.

كانت له فصاحة اللسان واللغة..

وكانت له القدرة على تأليف القلوب وجمع الثقة..

وكانت له قوة الإيمان بدعوته وغيرته البالغة على نجاحها..

وهذه صفات للرسول غير أحوال الرسول.. ولكنها هى التى عليها المدار فى تبليغ الرسالة، ولو اتفقت فيما عداها جميع الأحوال.

***

الفصاحة:

فالفصاحة صفة تجتمع للكلام، ولهيئة النطق بالكلام، ولموضوع

الكلام.. فيكون الكلام فصيحا وهيئة النطق به غير فصيحة، أن يكون الكلام والنطق به فصيحين، ثم تجتمع لموضوعه صفة الفصاحة السارية فى الأسماع والقلوب.

أما فصاحة محمد. فقد تكاملت له فى كلامه، وفى هيئة نطقه بكلامه، وفى موضوع كلامه..

فكان أعرب العرب، كما قال عليه السلام: "أنا قرشى واسترضعت فى بنى سعد بن بكر".

فله من اللسان العربى أفصحه بهذه النشأة القرشية البدوية الخالصة.. وهذه هى فصاحة الكلام.

ولكن الرجل قد يكون عربيا قرشيا مسترضعا فى بنى سعد ويكون نظقه بعد ذلك غير سليم. أن يكون صوته غير محبوب، أو يكزن ترتيبه لكلماته غير مأنوس.. فيتاح له الكلام الجميل ثم يعوزه النطق الجميل.

أما محمد فقد كان جمال وفصاحته فى نطقه كالجمال فصاحته فى كلامه، وخير من وصفه بذلك عائشة رضى الله عنها حيث قلت: "ما كان رسول الله ﷺ يسرد كسردكم هذا، ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل، يحفظه من جلس إليه".

واتفقت الروايات على تنزيه نطقه من عيوب الحروف ومخارجها، وقدرته على إيقاعها فى أحسن مواقعها.. فهو صاحب كلام سليم فى نطق سليم..

ولكن الرجل قد يكون عربيا قرشيا مسترضعا فى بنى سعد، ويكون سليما فى كلامه فى نطقه.. ثم لا يقول شيئًا يستحق أن يستمع إليه السامع فى موضوعه.

فهذا أيضا قد تنزه عنه الرسول فى فصاحته السائغة من شتى نواحيها..

فمـا من حديث له حفظه لنا الـرواة الثقات إلا وهو دليل صـادق على أنه قد أوتى حقا "جـوامع مع الكلم"، ورزق من فصالحة الموضع كـفاء ما رزق من فصاحة اللسان وفصاحة الكلام.

***

الوسامة والثقافة:

وكانت له مع الفصاحة صباحه ودمـائة تحببانه إلى كل ن رآه، وتجمعان إليه قلوب من عـاشروه، وهى صفة لم يخـتلف فيها صـديق ولا عدو، ولم ينقل عن أحد من أقطاب الدنيـا أنه بلغ بهذه الصفة مـثل ما بلغه محـمد بين الضعفاء والأقوياء على السواء.

وحسـبك من حب الضعفاء إياه أن فـتى مستـبعدا يفقـد أباه وأسرته - كزيد بن حارثة - ثم يظـهر له أبوه بعد طول الغيبـة، فيؤثر البقاء مع مـحمد عل الذهاب مع أبيه.

وإن خادم خديجـة رضى الله عنها - ونعنى به ميـسرة - يقدمه ليـبشر سـيدته بالربح والتـوفيق فى تجـارته، وهو أولى أن ينفس عليـه، وأن يدعى لنفسه ما اختصه به من الفضل والتقدم.

وحسبك من حب الأقوياء إنه جمع على محبته إناسا بينهم من التفاوت فى المزاج والخصال ما بـين أبى بكر وعمر وعثمان وخالـد وأبى عبيدة، وهم جميعا من عظماء الرجال.

ولكن الرجل قد يكون صبيحا دمـثا محبوبا، ولا يكون له من ثقة الناى وائتمانهم إياه نصيب كبير. . لأن الرجل المحبوب غير الرجل الموثوق به، وإذا اتفقت الخـصلتان حينا فـمن الجائز أن تفـترقا حـينا آخر، لأنهمـا فى عنصر الخصال لا تتلازمان.

أما محـمد فقد كان جامـعا للمحبة والثـقة كأفضل ما تجمـعان، وكان

مشهوراً بصدقه وأمانته كاشتهاره بوسامته وحنانه، وشهد له بالصدق والأمانة أعداؤه ومخالفوه كما شهد بهما أحبابه وموافقوه وامتلأ هو من العلم بمنزلة من ثقة القوم، فأحب أن يستعين بها على هدايتهم وترغيبهم فى دعوته فكان يسألهم: "رأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقوننى".

فيقولون: "نعم، أنت عندنا غير متهم".. إلا أن الإنسان ينفر مما يصدمه فى مألوفة وموروثاته، ولو صدقه وقام ولديه ألف برهان عليه. فلم يكن بالقوم أنهم لا يصدقون محمدا ولا يعلمون فيه الشرف والأمانة. وإنما كان بهم أنهم ينفرون من التصديق كما ينفر المرء من خبر صادق يسوءه فيمن يحب أو فيما يحب، وهو مفتوح العينين ناظر إلى صدق ما يلقى إليه.

***

الإيمان والغيرة:

ومن المحقق أن هذه الموافقات على كثرتها، وهذه الشمائل على ندرتها، لا تزال تتوقف على صفة أخرى يحتاج إليها الداعى أشد من احتياجه إلى الفصاحة والصباحة.. وهى إيمانه بدعوته وغيرته على احتياجه إلى الفصاحة والصباحة.. وهى إيمانه بدعوته وغيرته على نجاحها. فقد نجح داعون كثيرون تعوزهم طلاقة اللسان وطلاقة القسمات، ولم ينجح قط داع كبير يعوزه الإيمان بصواب ما يدعو إليه والغيرة عليه..

وقد مضى محمد ﷺ شبابه وهو يؤمن بفساد الزمان وضلال الأوثان.. وجاوره أناس أقل منه نبلا فى النفس ولطفا فى الحس ونفروا من الرجس، آمنوا بمثل ما آمن به من فساد عصره وضلال أهله، ومن حاجتهم إلى عبادة غير عبادة الأصنام، وآداب غير آدابهم فى تلك الأيام. فإذا جاوزهم فى صدق وعيه وسداد سعيه فقد وافق المهود فيه، الموروث من جده وأبيه.

ولما آمن برسالته هو دعوة ربه إياه إلى القيام بأداء تلك الرسالة لم يهجوا

على هذا الإيمان هجوم ساعة ولا هجوم يوم، ولم يتعجل الأمر تعجل من يخدع نفسه قبل أن يخدع غيره، ولكنه تردد حتى استوثق، وجزع حتى اطمأن. وخطر له فى فترة من الوحى أن الله قلاه وأعرض عنه، ولم يأذن له فى دعوة الناس إلى دينه، ثم تلقى الطمأنينة من وحى ربه ومن وحى قلبه ومن وحى صحبه. فصدع بما أمر، ورضى ضميره بما أوتى من الهداية على النحو الذى رضيت به ضمائر الأنبياء وأصحاب الفطرة الدينية، مع ما بينه وبينهم من فارق فى الرتبة والأهبة، وما بين زمانهم وزمانه من فارق فى الحاجة إلى الإصلاح.

فما من عجب إذن أن يكن محمد صاحب دعوة.

وما من عجب أن تتجه دعوته حيث اتجهت، وأن تبلغ من وجهتها الغاية التى بلغت وإنما العجب ممن يغلقون عن هذه الحقيقة أو يتغافلون عنها لهوى فى الأفئدة، فيشبهون اليوم أولئك الجاهلين الذين أصروا أمس على الكفر به، وحجبوا بأيديهم نوره عامدين.

***

نجاح الدعوة:

ما من حركة كبرى فى التاريخ تتضح للفهم إن لم يكن نجاح الدعوة المحمدية مفهوما بأسبابه الواضحة المستقيمة التى لا أعوج فى تأويلها، وما من شىء غير الغرض الأعوج يذهل صاحبه عن هذه الأسباب الطبيعية البينة ثم يخيل إليه أن الدعوة الإسلامية كانت فضولا غير مطلوب فى هذه الدنيا وأن نجاحها مصطنع لا سبب له غير الوعيد والوعود أو غير الإرهاب بالسيف والإغراء بلذات النعيم ومتعة الخمر والحور العين.

أى إرهاب وأى سيف؟

إن الرجل حين يقاتل من حوله إنما يقاتلهم بالمئات والألوف.. وقد كان

المئات والألوف الذين دخلوا فى الين الجديد يعترضون لسيوف المشركين ولا يعرضون أحدا لسيوفهم، وكانوا يلقون عنتا ولا يصيبون أحدا بعنت، وكانوا يخرجون من ديارهم لياذا بأنفسهم وأبنائهم من كيد الكائدين ونقمة الناقمين ولا يخرجون أحدا من داره.

فهم لم يسلموا على حد السيف خوفا من النبى الأعزل المفرد بين قومه الغاضبين عليه، بل أسلموا على الرغم من سيوف المشركين ووعيد الأقوياء المتحكمين.. ولما تكاثروا وتناصروا حملوا السيف ليدفعوا الأذى ويبطلوا الإرهاب والوعيد، ولم يحملوه ليبدأوا واحدا بعدوان أو يستطيلوا على الناس بالسلطان.

فلم تكن حرب من الحروب النبوية كلها حرب هجوم، ولم تكن كلها إلا حروب دفاع وامتناع.

أما الإغراء بلذات النعيم ومتعة الخمر والحور العين، فلو كان هو باعثا للإيمان، لكان أحرى الناس أن يستجيب إلى الدعوة المحمدية هم فسقة المشركين وفجرتهم وأصحاب الترف والثروة فيهم، ولكان طغاة قريش هم أسبق إلى استدامة الحياة واستبقاء النعمة. فإن حياة النعيم بعد الموت صحبة إلى المنعمين تحبيبها إلى المحرومين، بل لعها أشهى إلى الأولين وأدنى، ولعلهم أحرص عليها وأحنى، لأن الحرمان بعد التذوق والاستمراء أصعب من حرمان من لم يذق ولم يتغير عليه حال.

***

لم يكن أبو لهب أزهد فى اللذة من عمر..

ولم يكن السابقون إلى محمد أرغب فى النعيم من المتخلفين عنه، ولكننا ننظر إلى السابقين وننظر إلى المختلفين، فنرى فارقا واحدا بينهم أظهر من كل فارق. ذلك هو الفارق بين الأخيار والأشرار، وبين الرحماء المنصفين

والظلمة المتصلفين وبين من يعقلون ويصغون إلى القول الحق، ومن يستكبرون ولا يصغون إلى قول.

ذلك هو لفارق الواضح بين من سبقوا ومن تخلفوا، وليس هو الفارق بين طالب لذة وزاهد فيها أو بين مخدوع فى النعيم وغير مخدوع.

ولعلنا لا نستبين هذه الحقيقة من مثال واحد كما نستبينها من مثال عمر رضى الله عنه فى إسلامه.. فقضته فى ذلك نموذج لتلبية الدعوة المحمدية، ينفى كل كلام يقال عن الوعيد والإغراء وأثرهما فى إقناع الأقوياء أو الضعفاء.

قال ابن إسحق: "..خرج عمر يوما متوحشا بسيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطا من أصحابه.. قد اجتمعوا فى بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين بين رجال ونساء، ومع رسول الله ﷺ عمه حمزة بن عبد المطلب وأبو بكر بن أبى قحافة الصديق، وعلى بن أبى طالب، فى رجال من المسلمين رضى الله عنهم، ممن كان أقام مع رسول الله ﷺ بمكة ولم يخرج فيمن خرج إلى ارض الحبشة، فلقيه بن عبد الله فقال له "من تريد يا عر؟.."

فقال: "أريد محمدا هذا الصابئ الذى فرق أمر قريش، وسفه أحلامها، وعاب دينها، وسب ألهتها، فاقتله".

فقال نعيم: "والله لقد غرتك نفسك يا عمراء!.. أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا؟.. أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟".

قال "وأى أهل بيتى؟"

قال: "ختنك وابن عمك سعيد بن عمرو!.. وأختك فاطمة بنت الخطاب..فقد والله أسلما وتابعا محمدا على دينه، فعليك بهما"

قال: "رجع عمر عمدا إلى أخته وختنه، وعندهما خباب فى مخدع لهم أو فى بعض البيت، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما فلما دخل قال: "ما هذه الهينمة التى سمعت؟"

قالا له: "ما سمعت شيئا!.."

قال: "بلى والله!.. لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدًا على دينه"..
وبطش بختنه سعيد بن زيد فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها، فلما فعل ذلك قالت له أخته: "نعم.. قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بد لك" فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى، وقال لأخته: "أعطينى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرءون آنفا انظر ما هذا الذى جاء به محمد" وكان عمر كاتبا، فلما قال ذلك قالت له أخته: "إنا نخشاك عليها".

قال: "لا تخافى" وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها إليها فلما قال ذلك طمعت فى إسلامه، فقالت له: "يا أخى!.. إنك نجس على شركك، وإنه لا يمسها إلا الطاهر" فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصحيفة وفيها "سورة طه" فقرأها فلما قرأ منها صدر قال: "ما أحسن هذا الكلام وأكرمه!" فلما سمع ذلك خباب خرج إليه، فقال له: "يا عمر! والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإنى سمعته وهو يقول: "اللهم أيد الإسلام بأبى الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب.. فالله الله يا عمر!".

فقال له عند ذلك عمر: "فدلنى يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم" فقال له خباب: "هو فى بيت عند الصفا معه فيه نفر من أصحابه" فأخذ عمر سيفه فتوشحه ثم عند إلى رسول الله ﷺ وأصحابه فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ وهو فزع، فقال: "يا رسول الله!.. هذا عمر بن الخطاب متوشحا بالسيف".

فقال حمزة بن عبد المطلب: "نأذن له.. فإن كان جاء يريد خيرا بذلناه له، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه".

فقال رسول الله ﷺ: "ائذن له! فأذن له الرجل ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه بالحجرة فأخذ بجرته أو بجمع ردائه، ثم جنده جبذة شديدة وقال: "ما جاء بك يا ابن الخطاب؟.. فو الله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة!".

فقال عمر"يا رسول الله!.. جئتك لأومن بالله ورسوله وبما جاء من عند الله.

قال: "فكبر رسول ﷺ تكبيرة أهل البيت من أصحابه أن عمر قد أسلم" فتفرق أصحاب رسول الله ﷺ من مكانهم وقد عزوا فى أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة، وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله ويتصفون بهما من عدوهم.."

هذه قصة إسلام عمر بن الخطاب، وهذا موضع ما فيها من الوعيد والإغراء.. خرج بالسيف ليقتل محمدا ولم يخرج عليه أحد من المسلمين بسيف، وقرأ صدرا من "سورة طه" ليس فيه ذكر للخمر والنعيم وهو: ﴿طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾﴾ [طه: ١ - ٧].

فلا جبن إذن ولا طمع فى إسلام عمر بن الخطاب، بل رحمة وإنابة واعتذار..

* * *

ولم يكن فى إسلام الفقراء الذين هم أقل من عمر ناصرا وأضعف منه

بأسًا جبن ولا طمع، لأنهم تعرضوا بإسلامهم للسيف ولم يخضعوا للسيف حين أسلموا لله ورسوله، وما كفر الذين كفروا لزهد ولا شجاعة فيقال إن الذين سبقوهم إلى الإسلام قد فعلوا ذلك لشغف بلذات الجنة وجبن عن مواجهة القوة.. ولكنهم اختلفوا حيث تطلب طهارة السيرة، وصلاح الأمور، فمن كان أقرب إلى هذه الطلبة من غنى أو فقير، ومن سيد أو مستعبد فقد أسلم، ومن كان به زيغ عنها فقد أبى.. وهذا هو الفيصل القائم بين الفريقين أقبل أن يتجرد للإسلام سيف يذود عنه، وبعد أن تجرد له سيف تهابه السيوف وما يقسم الطائفتين أحد فيضع أبا بكر وعمر وعثمان فى جانب اللذة والخوف، ويضع الطغاة من قريش، فى جانب العصمة والشجاعة إلا أن يكون به هوى كهوى الكفار من قريش، فى الإصرار والإنكار.

***

إنما نجحت دعوة الإسلام لأنها دعوة طلبتها الدنيا ومهدت لها الحوادث، وقام بها داع تهيأ لها بعنية ربه وموافقا أحواله وصفاته..

فلا حاجة بها إلى خارقة ينكرها العقل أو إلى علة عوجاء يلتوى بها ذوى الأهواء، فهى أوضح شىء فهما لمن أحب أن يفهم، وهى أقوم شىء سبيلا لمن استقام.

***